

طبقاً لنواميس النشوء والتطور . فنذ ألقى سنة لم يكن لغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية مثلاً أثر من الوجود . فكيف نشأت ووجدت ؟ لما فتح الرومان باقي أقاليم إيطاليا ثم فرنسا وإسبانيا والبرتغال انتشرت لغتهم اللاتينية في تلك البلاد وكانوا هم الفاتحون الأفوياء كما أنهم كانوا أرق من السكان الأصليين في المدينة والشرائع والعلوم والفنون ، لذلك لم تلبث اللاتينية حتى تغلبت على اللغات المحلية وحلت محلها جريباً على نواميس الانتخاب الطبيعي وما يترتب عليها من انهزام الضعيف وبقاء الأصلح . ولكنها (أى اللاتينية) تطورت بدورها في كل بلد منها تطوراً مختلفاً باختلاف كل من تلك البيئات الجديدة فتحوّلت شيئاً فشيئاً في فرنسا الى الفرنسية وفي إيطاليا الى الإيطالية وفي إسبانيا الى الإسبانية وهكذا .

وكما أن الصور أو الحلقات المتوسطة بين الحيوانات والنباتات الحديثة وبين الأنواع القديمة التي تسلسلت منها موجودة وقد كُشف عن الكثير منها متحجراً في طبقات الأرض التي تكوّنت في مختلف الأعصر الجيولوجية القديمة ، كذلك الحلقات المتوسطة بين اللغات الحديثة وبين جداتها التي تسلسلت منها ، وأعى بها المؤلفات التي وضعت بتلك اللغات في الأعصر المتعاقبة ووصل إلينا الكثير منها . قلقة الكتب والرسائل الفرنسية التي وضعت في القرن العاشر مثلاً أو الثاني عشر قريبة من اللاتينية ومن ضريح من اللغات الأصلية المحلية . وكما اقتربنا من عصرنا الحالي مجدها تقرب من اللغة الفرنسية الحديثة بحيث نستطيع أن نتتبع تطور هذه اللغة التدريجي ونحوها شيئاً فشيئاً من اللغة اللاتينية التي اشتقت منها مع امتزاجها بشيء من اللغات المحلية الأصلية . وهكذا الحال بالنسبة للإسبانية وباقي اللغات المتسلسلة من اللاتينية . بل وإسائر اللغات الأخرى .

واللغات اللاتينية واليونانية القديمة (التي اشتقت منها اليونانية الحديثة) والجرمانية القديمة (التي تسلسلت منها الألمانية الحديثة وبعض لغات أوروبا الوسطى والشمالية بل واللغة الانكليزية نفسها) ، ومعظم لغات أوروبا الأصلية متسلسلة بدورها من لغة هندية قديمة وهي النسكرتية . وجميع هذه اللغات الهندية الأوربية تكتب من اليسار الى اليمين خلافاً للغات السامية مثلاً (التي منها العربية) فانها تكتب من اليمين الى اليسار هذا الأرقام لأنها من أصل هندي .

النطق وكيف نشأ

في النوع الانساني وفي الحيوانات العليا

للأستاذ نصيف المنقيادي المحامي

١ - هل النطق غريزي في الانسان ؟

يتمين علينا قبل الدخول في صميم الموضوع أن نشير الى نقطتين -
أول حقيقتين مقررتين ثابتتين :
تطور اللغات :

الحقيقة الأولى أن اللغات - وهي مظهر النطق أو صورته في مختلف الجماعات والبيئات الانسانية - لم توجد كما هي منذ ظهور الانسان على الأرض ولكنها تنشأ وتتطور شأن كل ما في الكون من جمادات ونباتات وحيوانات (بما فيها الانسان)

عامرة باليقين ، يشقون بماضهم وأنهم يستمدون منه الظفر : من ألف معركة منصوره كانوا أبطالها ، ومن ألف سنة مباركة كانوا ملوك الأرض فيها ، ويشقون بحاضرهم ، وأن دماهم ما أصاعت هذا الإرث ، وروؤومهم ما فقدت هذه الذكريات ، ونفوسهم ما خسرت ذلك الشمم وتلك الفضائل ، ويشقون بمستقبلهم ، وأنهم سيملكون الأرض كرة أخرى ، وسيمودون ملوكها . جنداً : شباباً هم في الحكمة كالشيوخ ، لم تسترقهم الشهوات ، ولم تستبدم اللذات ، ولم تلعب بهم الصبايا ، وشيوخاً هم في الزمعة كالشباب ، لم تفتنهم المناصب ، ولم يطفنهم الغنى ، ولم يسر في أعصابهم الخور ...

بهذا الجيش فلنجاهد ، جهاداً متصلاً مستمراً ، لا يني ولا يقف حتى يهدم قلاع العدو كلها ، ظاهرها ومضمورها ، وواضحها وخفيها .

إن الجهاد إن لم يبدأ من البيت والمدرسة والجريدة ، فلا يمكن أن ينتهي إلى الساحة الجراء ، فإذا أردتم أن تبلغوا نهاية الطريق فامشوا سن أوله ، وإن شئتم أن تصلوا إلى أعلى السلم فابدأوا من أسفله ، فإن من يمضي من آخر الطريق يرجع إلى الوراء ، ومن ينزل من رأس السلم يصل إلى الأرض ا

علي الطنطاوي (القاهرة)

الحديث منها من القديم ويتسلسل منه بطريق التطور التدريجي .
وسأين فيما يلي كيف نشأ النطق في بادئ الأمر كما ينشأ الآن
في الأطفال وفي كثير من الطيور والحيوانات العليا .

النطق غير غريزي في الإنسان :

والحقيقة الثانية التي يجب بيانها هي أن النطق ليس غريزياً
في البشر ولا هو مميز لهم عن سائر الحيوانات وليس « الإنسان
حيوان ناطق » كما كانوا يعتقدون فيما مضى قبل تقدم العلم .

فاذا فصانا طفلاً عن باقي البشر منذ ولادته وعهدنا في تربيته
الى شخص يتولى ذلك ببدأ عن الناس دون أن يفوه أمامه بأى
لفظ، فان هذا الطفل ينشأ عديم النطق بتاتاً إلا ما يصدر منه طبيعياً
أو فسيولوجياً من أصوات الألم والانفعالات النفسية كالتأوهات
والهمهمة والتأفف مثلما تفعل الحيوانات كما سنبينه فيما بعد . وقد
يلجأ الى بعض إشارات للتعبير عن حاجاته كرفع يده الى فمه اذا
أراد الأكل وما الى ذلك من الحركات الطبيعية الآلية . واذا
سلمناه الى جماعة من الخرس فانه لا يلبث حتى يقدم في إشاراتهم
ليعبّر بذلك عما يتطلبه من أمور الحياة فيكون في ذلك كالأخرس
دون أن يعرف الى النطق سبيلاً .

ويؤيد هذه الحقيقة ، أى أن النطق اللغوى ليس غريزياً في
الإنسان بل هو وليد البيئة ونتيجة التقليد السمعى — كما سيأتى
بيانه — ما هو معروف للجميع من أن الطفل الذى ينشأ فى وسط
قوم يتكلمون العربية مثلاً يتكلم هذه اللغة دون غيرها حتى اذا كان
آباءه وأجداده من أبناء لغة أخرى ، وكذلك الحال اذا نشأ طفل
عربى محض فى فرنسا ببدأ عن أهله منذ ولادته فانه لا يتكلم
إلا الفرنسية وهكذا . واذا فالنطق ليس بغيرى .

النطق في الحيوانات :

ومن جهة أخرى لا يخفى أن لكثير من الطيور وذوات
التدى وعلى الأخص القروذ العليا ، وكذلك الحشرات الاجتماعية
كأنمل لغات صوتية أو اصطلاحية بسيطة يتفاهم بها أفرادها الى
حد ما . فان لبعض الحيوانات إشارات طبيعية تعبر بها عن
انفعالاتها النفسية . فالكلب مثلاً يهز ذيله للترحيب بضيائه
ويقفوه ببعض أصوات خاصة لا يبدئها إلا فى مثل هذا الطرف ،

وما يقال عن اللغات الأوروبية يقال عن اللغات الشرقية
وغيرها . فبذ ثلاثة آلاف سنة تقريباً لم تكن اللغة العربية ولا
العربية الحديثة ولا الحبشية ولا أخواتها الحالية قد وجدت .
فكيف نشأت ؟ إنها نشأت وتطورت جرياً على نفس النواميس
الطبيعية المتقدم بيانها بفعل العوامل الاجتماعية والسياسية
والتاريخية والطبيعية . فاللغة أو اللغات الأصلية القديمة التى
اصطلح على تسميتها بالسامية تطورت تطوراً مختلفاً باختلاف الأقاليم
والبيئات التى انتشرت فيها الى أن تحولت الى العربية القديمة ،
والعربية القديمة والعربية القديمة (التى اشتقت منها القبطية
واستبدلت كتابة حروفها باليونانية) ، والحبشية ، والحيرية ،
والكلدانية أو البابلية ، والآشورية ، وغيرها . وقد استمرت
عوامل التطور تعمل فى هذه اللغات الأخيرة الى أن تحولت شيئاً
فشيئاً الى اللغات الحديثة المروقة . وسأعود فى آخر هذا المقال
الى تطور اللغة العربية فى مختلف البلاد الشرقية .

وكذلك الحال بالنسبة لمجموعة اللغات الطورانية القديمة
والحديثة (التى منها اللغة التركية ولغات آسيا الوسطى) وغيرها
من اللغات الأخرى .

وكما أنه توجد فى أنواع النباتات والحيوانات القديمة والحديثة
وفى الإنسان أعضاء أثرية لا وظيفة لها إطلاقاً بدليل أنه يمكن
استئصالها دون أن يصاب الفرد الذى تجرى له هذه العملية بأى
ضرر أو نقص فى حيويته ، لأنهما فى الواقع آثار أعضاء قديمة
كانت مستعملة عند أجدادنا البعدين ثم ضحرت شيئاً فشيئاً لعدم
استعمالها عند ما طرأت عليهم ظروف جديدة جعلتهم يستغنون عنها ،
كذلك توجد فى بعض الأناط حروف أثرية لا تنطق ولكنها
تدل على الأصل الذى تسلسلت منه . مثل لفظة Corps الفرنسية
أى جسم فان حرفى S و P لا ينطقان ولكنها كانا يلفظان
فى الأصل اللاتينى Corpus . وكذلك لفظة Sang الفرنسية فان
ال r لا تلفظ هنا ولكنها كانت تلفظ فى الأصل اللاتينى Sanguis
ويجد القارىء الكثير من هذه الأمثلة فى كتب علم نشوء اللغات
وتطورها .

وخلاصة القول إن لغات البشر ليست ثابتة ولم توجد كما هي
منذ ظهور الإنسان على الأرض ولكنها فى تطور مستمر ينشأ

أنواع أخرى منها اجتماعات على الأشجار أشبه بالحفلات الموسيقية بتبارى فيها الذكور في النطق بنغمت شجوية مطربة لتخطف ود الأنثى فتنتخب هذه أجملهم صوتاً ، كما أن أنواعاً أخرى يتباهى ذكورها أمام الأنثى بريشهم الزاهى ، ولهذا كان الذكور أجمل من الأنثى لافى الطيور فقط ولكن فى كثير من الفصائل والمراتب الحيوانية الأخرى نتيجة ذلك الانتخاب الجفسى الطبيعي طبقاً لنظرية داروين « Sélection Sexuelle » . على أن أنصار نظرية لامارك فى أسباب النشوء والتطور يضيفون إلى ذلك التفسير تفسيراً آخر يرجع إلى فعل العوامل الطبيعية الخارجية (البيئة والعوامل الجوية ونظام الحياة والمادة والاستعمال أو عدم الاستعمال الخ) والداخلية (العوامل الفسيولوجية والتفاعلات الكيميائية التى تحدث داخل الجسم وعلى الأخص فعل الهرمونات التى تفرزها الغدد الصماء أى الغدد ذات الإفراز الداخلى)

ومما يرجح نظرية لامارك على نظرية داروين فى تفسير تلك الظاهرة ونمى بها تفوق الذكور على الأنثى فى جمال الصوت وزهاء الريش وغزارة الشمر وجمال اللون هو ما يحدث فى كثير من أنواع الأسماك حيث تكتسب الذكور فى موسم التلقيح ألواناً زاهية يسمونها فى علم الحيوان « حلة الرفاف » على حين أن تلك الأنواع لا تتزاوج ولا تلقح بعضها تلقيحاً فعلياً مباشراً بل إن الأنثى تفرز بويضاتها رأساً فى الماء ثم يأتى الذكر ويفرز مادته النوية فى الماء أيضاً فيحدث التلقيح بين مايلتق منهما بفعل الأمواج ، وكل هذا دون أن يتصل الذكور بالأنثى . فلا شك فى أن الألوان الزاهية التى تظفر على الذكور إنما هى نتيجة التفاعلات الكيميائية التى تحدثها فى الجسم الإفرازات الداخلية للخصيتين عند نضوجهما وهى التى تثبت مثلاً الشوارب وشعر الذقن فى ذكور النوع الإنسانى وتؤثر فى صوتهم ونكسبهم صفات الرجولة ، كما أن إفرازات المبيضين تكسب الفتيات عند البلوغ نمومة للمرأة وصفات الأنوثة فيها .

نمود إلى النطق فى الحيوانات فنقول إن القروود طامة وهى الأخص القروود العليا الشبيهة بالإنسان (النورلا ، والشانبازيه

وهو يرخى ذبله إلى الأرض بين قدميه عند الخضوع والخشوع والخوف وهو والققط وبعض الحيوانات الأخرى يكشون آذانهم عند الخوف إذا هددوا مثلاً بالضرب .

وللنمل طريقة للتفام أشبه بلغة الإشارات التلفزيونية . فإذا تقابل إثنان منها من نوع واحد زارها يتلامسان بزوائدهما الأمامية برهة ثم يسير كل منهما فى طريقه . وإذا اكتشف أحدهما شيئاً من الغذاء يسرع إلى استدعاء باقى أفراد جماعته ، ومعلوم أنه ليس للنمل وسائر الحشرات قسبة هوائية ولا أوتار صوتية نظراً لأنه ليس لها رئتان بل إنها تنفس من مسام عديدة على سطح جسمها ينفذ منها الهواء إلى داخل الجسم ، فلا يمكن والحالة هذه أن تحدث أى صوت تفام به ، ولا شك فى أنها تتحدث مع بعضها بالإشارات بالطريقة المتقدم بياها (Langage Antennale) :

وليست لغة الحيوانات قاصرة على الإشارات ولكن الكثير منها ينطق بأصوات للتعبير عما يجول فى نفسيتها البسيطة من الانفصالات والقاصد المحدودة . والذي يرقب الققط مثلاً فى المنازل يراها عند رؤية الطعام أو شم رائحته أو عند ما تجوع تبدي نغمة خاصة . ولها عند نداء صغارها صوت آخر لا تنطق به إلا فى هذه المناسبة فقط . وللأنثى منها عند طلب الذكر صوت معروف أشبه بلفظة « داؤد »

والببغاء تنطق بكلام البشر بوضوح . وقد دلت الشهادات والاختبارات على أنها تفهم فى أغلب الأحيان مجمل ما تنفوه به مما تكون قد حفظته من باب التقليد فى بادية الأمر ثم تكرر . وينتهى بها الأمر إلى أن لا تنفوه به بمد ذلك إلا فى المناسبات التى تؤدى إليها معانيه ، بل إنها كثيراً ما ترد على ما يوجهه إليها الإنسان بالألفاظ المناسبة مما يدل على أنها تدرك إلى حد ما معانى ما تسمع ومعانى ما تقول . ويتم لها ذلك بالتقليد والتلقين والتحرين كما يحدث للأطفال على وجه التقريب ، ذلك لأن الأطفال يتملون بنفس هذه الطريقة : التقليد والتلقين والتحرين .

أما تفريد الطيور فأسمه معروف ، وتمتاز به الذكور فى بعض الأنواع لتفري الأنثى حتى تكتسب إعجابها وتفوز بها . وتقيم

يجب أن يتكلم بلا انقطاع في مجتمعاته الحاجة والمامة ، في كل مكان وزمان ، يخلق الناسبات ليشبع شهوة الكلام ، وإذا تقابل اثنان على غير سابق معرفة في القطار أو الترام مثلا نراهما يتحدثان ولو في آتفه المواضيع كالجو والطقس . وإذا لم يجد الانسان من يتحدث معه يظل يتكلم مع نفسه ويكرر مثلا ما قاله أو ما يود أن يقوله لغيره ، وأحيانا يصحب هذا الحديث إشارات بيديها بيده على غير قصد ثم عما يدور في نفسه . وحتى في نومه لا يخلو من الكلام ، وكثيراً ما يتفوه وهو على هذه الحالة بالفاظ واضحة أو غير واضحة بسمها من يجواره . وكثرة الكلام مرض عند بعض الأشخاص يضاقون به غيرهم فيهرب الناس منهم . وفي المقال التالي نتكلم عن نشوء النطق في النوع الانساني ثم نعقبه ببحث خاص عن تطور اللغة العربية^(١) .

نصيف النقباري

الحامي

(١) كتبت هذا البحث قبل ظهور الكتاب القيم في هذا الموضوع للدكتور علي عبد الواحد وأني وسنعود إلى الحديث عن الكتاب .

والأورناجوتان ، والجيبون) لغة أو لغات حقيقية وإن كانت على أبسط صور النطق ، مكونة من بعض أصوات أو مقاطع لا تبعد كثيراً عن لغات الأطفال في أوائل العام الثاني من ولادتهم ولغات بعض القبائل التوحشة .

وقد التقط بعضهم أصوات أفراد من القروء على اسطوانات فونوغرافية ثم أدارها أمام قروء من نفس النوع في حدائق الحيوانات فكانت تعنى إليها باهتمام وتنبه وتبدي إشارات وحركات وتنطق بأصوات كأنها ترد عليها .

ومما يؤيد أيضاً أن النطق في الإنسان والحيوانات ليس غريزيا وإنما هو مكتسب بالتقليد التجربة القديمة الآتية التي أجراها دين بارنجتون الإنكليزي Daines Barrington ودونها في موسوعته الفلسفية التي ظهرت سنة ١٧٧٣ في الجزء ٦٣ Philosophical transactions وقد نقلناها من كتاب العالم البيولوجي الفرنسي فيلكس ليدانتك « العلم والشعور » Science et conscience طبع سنة ١٩١٦ صحيفة ١٨١ فقد أخذ بارنجتون عصفائر صغيرة عقب ولادتها من نوع Linottes ونقلها إلى عش عصفائر من نوع آخر يسمى Alonettes فاقبست تفريد هذه العصفائر بطريق التقليد وظلت تفرده طيلة حياتها كأنها طبعت عليه إلى حد أنه وضعها بعد ذلك مع أفراد من نوعها فلم تستطع أن تجاريهم في تفريدهم الذي هو تفريد آباؤها وأجدادها . ذلك لأن مخ العصفائر المحدود يمجز عن وعي شيء جديد غير ما طبع فيه بطريق التقليد في مسهل حياة هذه الكائنات البسيطة .

وخلص القول إن النطق ليس بغيري في البشر ولا هو قاصر عليهم وإنما هو ظاهرة فيسيولوجية بيكولوجية طرأت على بعض الحيوانات وتدرجت حتى وصلت إلى مامى عليه في النوع الانساني . كما أن اللغات ظاهرة اجتماعية

فالانسان ليس بحيوان ناطق كما كانوا يملوننا فيما مضى وهو لا يختلف في شيء من هذه الناحية عن باقي الحيوانات إلا في الدرجة فقط .

وكل ما هناك هو أن الانسان حيوان ثنار كثير النطق

طبعة الرسالة :

تقدم قريباً

والطبع الأنيق

الذوق الفني

في الطبعة الجديدة من كتاب :

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ

محمد حسن الزيات